

التوظيف الرمزي للغة الصوفية في الخطاب الشعري الجزائري المعاصر - ديوان "أنطق عن الهوى" لعبد الله حمادي أنموذجا -

The symbolic employment of the Sufi language in contemporary Algerian poetic discourse Diwan "I pronounce the fancy" by Abdullah Hammadi as a model

د/ وردة حلاسي

Warda HALLACI

جامعة 8 ماي 1945 - قالمة

مخبر الدراسات اللغوية والأدبية

hallaci.warda@univ-guelma.dz

تاريخ الإرسال: 2023/05/13 تاريخ القبول: 2025/03/05

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى البحث في التوظيف الرمزي للغة الصوفية في ثنايا قصائد ديوان "أنطق عن الهوى" للشاعر عبد الله حمادي. انطلاقا من تجليات هذه اللغة على مستوى العنوان والمتن الشعري، للوقوف على تمظهراتها الدلالية والتأويلية، خاصة وأن اللغة الصوفية متنفس للشعراء المعاصرين للتعبير عن رغباتهم الباطنية، وواقعهم بكل تناقضاته، كما أنها لغة ذات طبيعة خاصة، لأنها تعتمد على الرمزية في التعبير والتحليل والتعمق في التأويل.

ولتحقيق أهداف الدراسة، والإجابة على الإشكالية المطروحة، تم إتباع المنهج الفني التحليلي، الذي يقتضي وصف الظاهرة وتحليلها.

وانتهت الدراسة إلى أن العلاقة بين الأدب والتصوف لا تخلو من الإشكالات والقراءات والتأويلات.

الكلمات المفتاحية: الدلالة؛ التأويلية؛ التوظيف الرمزي؛ اللغة الصوفية؛ الخطاب الشعري.

Abstract:

This study aims to investigate the symbolic employment of the Sufi language in the folds of the poems of Diwan I speak about fancy by the poet Abdullah Hammadi. Based on the manifestations of this language at the level of title and text to find out its semantic and interpretive manifestations. Especially since the Sufi language is an outlet for contemporary poets to express their esoteric desires, and their reality with all its contradictions, It is also a language of a special nature, because it relies on symbolism in expression, and analysis and in-depth interpretation.

To achieve the objectives of the study, and to answer the problem posed, the analytical artistic approach was followed, which requires the description and analysis of the phenomenon.

The study concluded that the relationship between literature and Sufism is not without problems, readings and interpretations.

Key words: Semantics; hermeneutics; symbolic employment; Sufi language; poetic discourse.

مقدمة:

اتجه الشعراء الجزائريون المعاصرون إلى تجديد لغتهم الشعرية وتحديثها، عن طريق إخراجها من سياقاتها القديمة، وتشكيلها في سياقات جديدة، تبعث على التأويل اللانهائي، والتعدد القرائي، وذلك من خلال توظيفهم للغة الصوفية، باعتبارها لغة رمزية ومجازية، مشحونة بالألفاظ والدلالات المفتحة على آفاق التأويل، لما تحتويه على صور متعددة من التشبيه والاستعارة والكناية والتمثيل، وخاصة الإيحاء والتلميح، عوضاً عن الشرح والإبلاغ والتصريح.

شكلت اللغة الصوفية متنفساً للشعراء المعاصرين للتعبير عن رغباتهم الباطنية، وواقعهم بكل تناقضاته، ومواقفهم في ظل الثنائيات الأساسية: الموت والحياة، العدم والوجود، اللفظ والمعنى، الحركة والسكون، الظاهر والباطن، الامتلاء والافتقار، الحضور والغياب، الكره والحب... فكل هذه الثنائيات والعناصر، هي التي تشكل أبعاداً جمالية وفنية لهذا الشعر، وتعطيه فرصة الخروج من العدم إلى دائرة الوجود "وبقدر ما تحققه من نجاح على مستوى التواصل، فإنها (الظاهرة الشعرية) تحاول القبض على المرجع الغائب من النص الشعري. وهذا القانون الثنائي هو الذي يحكم الشعر ويعطيه حقه في الوجود، وهذه الثنائية أيضاً هي التي توجه مسار القصيدة الشعرية وتعطيها وظيفة ثقافية واجتماعية مميزة"⁽¹⁾.

تلعب اللغة في كل ذلك دوراً كبيراً في هذه الثنائيات، لأنها الأداة التي يستعملها الشاعر في التعبير عن مقاصده ومضامينه. فكل حضور لغوي يقابله غياب لغوي آخر، وبقدر ما تكون جدلية الحضور والغياب قوية بقدر ما يكون النص الشعري قوياً معبراً "ولكنها في الوقت نفسه سجن يحد بصفة مأساوية من طموحه في المطلق فلا يبلغ من ذاته إلا ما تسمح به، فكل حضور لغوي متعلق به غياب ودلالاتها (اللغة) الغائبة لا تقل شأنًا عن دلالتها الحاضرة"⁽²⁾.

فالشعر فضاء لا نهائي حدوده اللغة، التي تشكل الرؤيا الكلية للوجود، لذا فقراءة الشعر على هذا الاعتبار، يجب ألا تبقى عند حدود المستوى السطحي الظاهر (الدال) وإنما لا بد أن تتعداه إلى المستوى الأكثر عمقاً (المدلول) لتصل إلى الدلالة خاصة فيما يخص القصيدة الصوفية "وفي مثل هذه القراءة يحتاج القارئ، بالإضافة إلى الكفاءة اللغوية التي تقوم على أساس من مرجعية اللغة، إلى الكفاءة الأدبية التي تلعب دوراً في معرفة القارئ للمنظومات الوصفية، والقيمات الأدبية وأساطير المجتمع، حتى يستطيع إكمال الثغرات، أو التكميغات في النص، أو يقوم بإتمام النص وإكماله وفقاً للنموذج المفترض"⁽³⁾.

وعلى أساس هذه اللغة الصوفية الفريدة في نوعها، والثرية بالدلالات والرموز والإيحاءات، شكل الشعر الصوفي نصاً لغوياً ودالياً متميزاً في الأدب العربي القديم والحديث والمعاصر، الأمر الذي جعل الدراسات النقدية على اختلاف اتجاهاتها، توجه اهتماماً خاصاً لجمالية اللغة الشعرية الصوفية.

هدف الدراسة: تهدف الدراسة إلى البحث في جمالية اللغة الصوفية والتوظيف الرمزي في الشعر الجزائري المعاصر، من خلال ديوان "أنطق عن الهوى"، باعتبار الأدب فن مفتوح على جميع الخطابات، ومنها الخطاب الصوفي، وعلى الرغم من أن العلاقة بين الأدب والتصوف لا تخلو من الإشكالات والقراءات والتأويلات، فالتصوف والأدب، وبالأخص الشعر بينهما روابط متينة وتفاعل كبير، سواء على مستوى التجربة أو الكتابة.

إشكالية الدراسة: تطرح الدراسة السؤال الآتي: كيف تجلت اللغة والرمز في الخطاب الصوفي في ديوان أنطق عن الهوى "للشاعر عبد الله حمادي؟

انبثق عن هذا السؤال الرئيسي، أسئلة أخرى فرعية كالآتي:

- إلى أي مدى استطاع الشاعر الجزائري عبد الله حمادي استيعاب التجربة الصوفية واستحضارها في ديوانه؟.

- كيف تظاهرات الدلالة التأويلية للغة الصوفية والتوظيف الرمزي في ثنايا قصائد الديوان؟.

منهج الدراسة: لتحقيق أهداف الدراسة والإجابة على الإشكالية المطروحة، تم إتباع المنهج الفني التحليلي، الذي يقتضي وصف الظاهرة وتحليلها، وعلى الرغم من وجود دراسات سابقة في هذا الموضوع، والتي نذكر منها:

- **دراسة كريمة حميطوش:** تحول الاشتغال اللغوي في ديوان أنطق عن الهوى لعبد الله حمادي، مجلة الممارسات اللغوية، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، العدد 30، 2014.

- **دراسة أحمد أبقار:** الرمز الصوفي عند عبد الله حمادي مقارنة تأويلية، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، جامعة الوادي، الجزائر، المجلد 6، العدد 6، 2014.

- **دراس منى أرنوب:** الرمز وتجلياته في ديوان "أنطق عن الهوى" لعبد الله حمادي، مذكرة ماستر في اللغة والأدب العربي، جامعة أم البواقي، الجزائر، 2012.

أهمية الدراسة: تنبع أهمية الدراسة من كونها تبحث في الدلالة التأويلية للغة الصوفية، وفي الرمز الصوفي معا في بعدهما الفني والتحليلي، وهو ما لم تتناوله الدراسات السابقة.

التجربة الصوفية:

مفهوم التصوف: تعدّ التجربة الصوفية تجربة روحية متميّزة، تحمل فلسفة ونظرة إلى الحياة ورؤية للوجود، تتعامل مع الكون بشكل عام، ومع القضايا الإنسانية بشكل خاص، وهي: "تجربة يعيشها صاحبها بين مكابدة مشاق الطريق إلى الحضرة القدسية النورانية، وبين مقاومة رغبات النفس المادية، في حالة من الحب والوجد المقدس الرامي للوصول إلى المعرفة المطلقة، والقرب من الأنوار الإلهية، إنها رحلة الإنسان من المكون الترابي إلى المكون النوراني، من البعد المادي للإنسان إلى البعد الروحي، المتعالي والمتسامي"⁽⁴⁾.

فالتجربة الصوفية، هي في الأساس تجربة دينية يعيشها المتصوف وفق اعتقاده وتصوره الديني والأخلاقي والمعرفي، و"التصوف في حقيقة أمره محاولة لتجاوز الشغائر والرسوم الظاهرة لأي دين لكي، تواجه النفس في أعماقها شحنات روحية تربطها بالجهد الخلاق وتدف بها في أنوار المقدس والغامرة لتسبح في ينبوع النور وتنعم بالتواجد في جلال الحضرة الإلهية"⁽⁵⁾. والتصوف من هذا المنطلق هو تهذيب وتزكية للنفس وتطهير للقلب من الرذائل ومجاهدة للنفس للحد من شهواتها وأهوائها، لنيل السعادة الأبدية.

يرى عبد المنعم خفاجي أن: "التصوف إيثار لما يبقى على ما يفنى، تضحية بالعاجل وإيثار للأجل، مجاهدة للنفس ومغالبة لهوائها، هو نزوع فطري نحو الكمال الإنساني الرامي، إلى التسامي"⁽⁶⁾، فالتصوف بهذا المعنى هو مجاهدة النفس عن أهوائها، كما أنه علم لمكونات القلوب، وهو أسلوب أساسه التضحية بالذات، وإيثار كل ما لله على كل ما للنفس.

أصبح التصوف اليوم يشكل أحد منابع التراثية، التي تغني التجربة الإنسانية في عصرنا الحاضر برؤى مختلفة وبرموز مثيرة، كثيرا ما يستغلها الأدباء والشعراء في إثراء تجاربهم الإبداعية خاصة أن التجربة الصوفية متعددة الدلالة قابلة للتأويل، وتوحي العودة للتراث الصوفي في الأدب والشعر بجدية التجربة وتفرداها، وارتباط صاحبها بأصالتها الثقافية.

التوظيف الرمزي للغة الصوفية في ديوان "أنطق عن الهوى":

البعد الصوفي على مستوى العنوان: يعدّ العنوان بنية لغوية مشحونة بالدلالة، وهو نظام سيميائي ذو أبعاد دلالية، و"مصطلحا إجرائيا ناجحا في مقاربة النص الأدبي، ومفتاحا أساسيا يتسلح به المحلل للولوج إلى أغوار النص العميقة قصد استنطاقها، وتأويلها"⁽⁷⁾، إنّه الظاهر بالنسبة للباطن ومحتواه، وهو الرؤية التي تتخلق من رحم النص والقارئ لعنوان ديوان "أنطق عن الهوى" لعبد الله حمادي، يجده قد وقع جملة فعلية "أنطق عن الهوى" فكلية "أنطق" نجدها تحمل دلالة الكلام فقد جاء في القاموس المحيط: "نطق: ينطق نطقا ومنطقا ونطوقا تكلم بصوت وحروف تعرف بها المعاني أول الصوت"⁽⁸⁾، والكلام عكس السكوت أو الصمت، وهذا يعني أنّ النطق هنا عند الشاعر عبد الله حمادي يتأسس في مقابل الصمت أو السكوت، وكأنّ اللغة المنطوقة أو لغة الكلام فقدت قدرتها في التعبير عن المشاعر والرغبات، وعما يكتنز في نفس الشاعر.

لقد أضحي الصمت الذي عادل الكلام تقريبا في ديوانه "أنطق عن الهوى"، وسيلته البليغة الأكثر قدرة على التعبير في أكثر حالاته تأزما، لقد أصبح الصمت استعارة تعبر عن لغة تجسد توتراته، كما أنّ النطق عنده ارتبط بلفظة "الهوى"، والهوى كما هو معروف ميل النفس إلى ما تحب من الخير أو الشر. وللّهوى معاني عدّة فهو الحب وهو العشق، وحب الشهوات، جاء في لسان العرب لابن منظور: "هوى وأهوى وانهوى: سقط، والهوى مقصور هوى النفس... قال اللغويون: الهوى محبة الإنسان الشيء وغلبيته على قلبه، قال الله عز وجل: ونهى النفس عن الهوى، معناها نهاها عن شهواتها وما تدعو إليه من معاصي الله عز وجل"⁽⁹⁾.

وكثيرا ما عبّر الهوى عن العشق والحب والوجد عند الشاعر، فكان:

الهوى = الميل (ميل النفس إلى الشهوة)، حيث يقول الشاعر:

كنتُ في مخدعها

قبل غروب الأمس...

أبحث عن جسد امرأة

مرهقة بالبوح⁽¹⁰⁾.

الهوى = الحب، حيث يقول الشاعر:

هو الحبُّ ما شاء لنا الهوى

وما دون ذاك فالقلوب تجيب...

.....

فالحب لولا الحب ما بقينا

ولا دارت سنة الكون واهتدينا⁽¹¹⁾.

الهوى = العشق، حيث يقول الشاعر:

لحظة يحتفل فيها العشق

بمؤسم الوصل

والليالي المعنقات الوبيدة...⁽¹²⁾.

(...) مهلا: فعشقتك مسفوك على ألقى
وطيب عطرك تياه ومبتكر
نبتت من شيطان فانتنتي
ومن سحابي يفيض الوجد والسمر⁽¹³⁾.

والعشق كما جاء في لسان العرب: "عشق: العشق: فرط الحب، وقيل: هو عجب المحب بالمحبيب يكون في عفاف الحب ودعارة. عشقه يعشقه عشقا وعشقا وتعشقه، وقيل: التعشق تكلف العشق، وقيل: العشق الاسم والعشق المصدر... وسئل أبو العباس أحمد بن يحيى عن الحب والعشق: أيهما أحمد؟ فقال: الحب، لأن العشق فيه إفراط، وسمي العاشق عاشقا لأنه يذبل من شدة الهوى كما تذبل العشقة إذا قطعت، والعشقة شجرة تخضر ثم تدق وتصفّر"⁽¹⁴⁾، وجاء في معجم الرائد: "عشق يعشق: عشقا وعشقا ومعشقا: أحبه وأولع به بشدة، بالشيء: لصق به. عشق: عشق: إفراط الحب والولوع، شدة الحب"⁽¹⁵⁾.

فالعشق كما هو معروف هو "أقصى درجات المحبة، وسائر مقاماتها كلها مندرجة فيه، ومعناه اتحاد ذات المحبوب بذات المحب اتحادا يوجب غفلة المحب شغلا بشهود محبوبه في ذاته بذاته، ولذا قيل أنه أقصى مقامات الذهول والغيبة، وهو أن يكون العاشق لا يسمع إلا لمحبوبه، ولا يبصر إلا به، ولا يدرك إلا به وله، ومنه فناء به عن نفسه وعن الأشياء، فإذا وصل المحب إلى هذا الحد اطلع على أسرار الغيوب، وأخبر معاينة لا على سبيل الحدس وغلبات الظنون بل على الكشف والمشاهدة"⁽¹⁶⁾.

لقد غدا العنوان في ديوان "أنطق عن الهوى" يشكل حمولة دلالية، فهو علامة وإشارة تواصلية، والرباط المتين بين المرسل والمتلقي، ولقد جعل عبد الله حمادي عنوانه، يتسم بالبعد الصوفي، فالعشق الصوفي يأخذ العاشق إلى عوالم الكشف والفهم الأعماق للحياة وأسرارها، وهذا ما يعتقده العشاق فإن كان العشق الصوفي يدل على أعلى مراتب الحب الإلهي، فإنه أيضا في المجتمع يعني أعلى درجات الحب بين الرجل والمرأة.

البعد الصوفي على مستوى المتن الشعري: ركز الشعراء الجزائريون على تشكيل لغة شعرهم الحدائي، فلتفتوا إلى الخطاب الصوفي، الثري بالدلالات والرموز، ولغته التي تخرج من مجرد وسيلة للتعبير والتوضيح إلى ظاهرة، تبعث على التأمل والتأويل اللانهائي، وذلك إيمانا منهم بأن "اللغة الصوفية لغة شعرية رمزية، ورمزيتها تكمن في أن كل لفظة تكسب محمولات جديدة لمجرد توظيفها في التجربة الصوفية، وهي بذلك تخلق عالمها الخاص"⁽¹⁷⁾.

على هذا الأساس اتجه الشعراء الجزائريون الحداثيون منهم والمعاصرون إلى توظيف الخطاب الصوفي لإثراء تجربتهم الشعرية وشحنها بدلالات رمزية، باعتبار الرمز من أهم الأدوات الشعرية، التي خاضت بها القصيدة المعاصرة نمط التجديد.

فالرمز الشعري عامة والصوفي خاصة، من أكثر العناصر التي تعمق المعنى الشعري، وترتقي بشعرية القصيدة وتعمق دلالتها، وتبعث على التأثير والتلقي، لذلك كان الرمز الصوفي عالما خاصا، يترجم ويعبر عن حالة الصوفي الداخلية، وكان هدف اللغة الصوفية وصف ما لا يمكن وصفه، وقول ما لا يقال، وهنا فـ "إن تجربة الشاعر المعاصر، وتجربة الصوفي تتشابهان، كونهما يرتبطان بالوجود، ويسعى كل منهما إلى الاندماج في الكون والاتحاد بإيقاع العالم الخفي، كما أنهما يميلان إلى اللغة التي تكثفي بالإحياء والرمز، وتتجنب الوضوح والمباشرة والتقرير، لأنهما يؤمنان، أن قدرة اللغة دون سعة

التجربة، ولذلك يلجأ كل منهما إلى لغة الإحالة، وهي دعوة حرة للمتلقي كي يكشف بنفسه كل إحياءات الرمز، اكتشافاً يتفاوت فيه الناس بمقدار تفاوت ثقافتهم وأذواقهم ودرجة شعورهم قوة وعمقا، بما تحتوي التجربة من دلالات وإحياءات، كما أن إنكبابهم على المطلق والمعنوي، يجعل منهما كائنين ينشدان الحرية في أرقى معارجها، فكما يتجنب الصوفي سلطة الواقع والعقل والحس، يتجنب الشاعر أيضا كل أنواع القيود، التي تحد من رؤيته الشعرية، فالشاعر المعاصر - في الغالب- يرفض الواقع، من منطلق المسؤولية التي يشعر بها داخل الذات الراضية للموانع والحدود، فلم يستطع التأقلم مع مجريات الأحداث، فهو يؤثر الهروب إلى عوالم الصوفية عله يجد فيها الخلاص لهومومه وعذاباتهِ وآلامه⁽¹⁸⁾.

إنَّ الشاعر المعاصر أصبح يعيش حالة تأملية فردية وخاصة، تتكاثر فيها الأسئلة، حول الذات، والوجود، فينقل شعوره ويصور خياله وأحاسيسه، عبر لغة مشحونة تصور عالمه الروحاني، ويعتبر الشاعر عبد الله حمادي من أكثر شعراء الجزائر، هروبا إلى عوالم اللغة الصوفية والرمز الصوفي، كأسلوب للتعبير عما يعيشه ويحلم به، شأنه في ذلك شأن الصوفي.

والمأمل لقصائد ديوان "أنطق عن الهوى"، يجد الشاعر عبد الله حمادي يستخدم الرمز الصوفي للبحث عن الحقيقة واليقين، كما هو الصوفي، ولعلَّ أهم الرموز التي وظفها هي: رمز المرأة ورمز الخمر ورمز الرحلة، وهذه الرموز مجتمعة تعبّر عن الذات الإلهية.

تجسد قصائد ديوان "أنطق عن الهوى" لعبد الله حمادي في بنيتها السطحية الظاهرة علاقة حب بين رجل وامرأة بكل أبعادها وأجوائها الرومانسية، مشكلة بذلك مشاهد أكثر جمالية، حيث يصرّ الشاعر فيها على قول ما يريد دون خجل، أو تردد، أين تثمر المكاشفة عن خواطر العطر والهوى، ومنقبة الغوايات، يقول:

كوني مرفأ... / مركبأ... / غرقأ... / كتابة...
كوني منارة تدق متارس العبادة.
خارطة مرسومه
بريشة معثوهه
ونزوة مصابة...⁽¹⁹⁾

إنَّ العاشق ينساق وراء عواطفه، ولا يستطيع مقاومتها، أو كبحها في لحظات الإغراق في الشهوات، حيث تتشهى النفس قطف العطور من ضفائرها، ويتهدى عبق محموم من أدراج معارجها، ليحتل شوق الأسفار منها وإليها، يقول:

يدُها في يدي
والفراشات هلّكي
والمناهاة تقضي
بما يُتيح السُفور... /
يدُها في يدي
ويُنسِل القطر.
ملء الضفائر أغنيات
يسكبها الفجر /
ينتجر العطر /
ينقطع الكلام /
يهجرها الصحو
يزنجل السؤال... /⁽²⁰⁾

يوصل الشاعر العاشق الرحيل هائماً في أوتار سوانح حبيبته الحبلى بالآمال الموعودة، معلناً أسباب الغوص في دقات القلب المسرحج للأسفار القادمة أين تستدرج اللحظة اللعنة والغواية، فالشاعر يتحدث عن لقاء محسوس، يجسده حضور الأنثى التي تضع يدها في يد الشاعر، حيث اللقاء والغرام والحب (الاتصال بالآخر)، لكن سرعان ما تنحرف هذه المعاني عن دلالتها، فينقطع اتصاله بالعالم الخارجي، وهنا يحدث الانفصال عن الذات وعن الآخر، يقوله:

والفراشات هُلْكَى

والمناهاة تَفْضِي

بما يُتَبَّح السُّفور.../

.....

يَنْتَجِرُ الْعِطْرُ /

يَنْقَطِعُ الْكَلَامُ /

يَهْجُرُهَا الصَّخْرُ

يَرْتَحِلُ السُّؤَالُ... / (21).

إنَّ الشاعر يحاول البوح من خلال اللغة، التي جعلها اللسان الناطق، تقوم بدور التبليغ وإيصال المراد، إنَّها لغة تحمل الدهشة والحيرة، فاللغة عند الشاعر الجزائري المعاصر لم تعد مجرد أبنية وألفاظ ومفردات جاهزة، يعود إليها كلما أراد أن يعبر عن حالة ما، وإنما هي لغة تتغير وتتلون بحسب التجربة المعاشة، حيث تولد من كل حالة ووجدانية لغة خاصة تعبّر عنا وتسايرها، ويحدث على إثرها انحراف دلالي، غير أنَّ الحب عند الشاعر يبقى هو الجسر الواصل إلى عالم الاتصال الروحاني، يقول:

(...) هَا جِئْتُكَ مُنْهَكًا

أُبْتَغِي عَرْشَكَ الْأَنْقَى

وَأَهْفُو لِمَخْيَاكِ فِي الْمَنَافِي السَّعِيدَةِ...

يَتَشَهَّى الْبَحْرُ الْخَصِيمُ تَبْدُدُ جِسْمِي

خَلْفَ أَسْتَارِ مُقْلَتَيْكِ الْحَبِيبَةِ.

لحظة يَحْتَفِلُ فِيهَا الْعَشَقُ

بِمَوْسَمِ الْوَصْلِ

وَاللَّيَالِي الْمَعْتَقَاتِ الْوَيْدَةِ... (22).

فالشوق والحنين والتعلق والافتتان، هي الروابط التي شَدَّتْ الصوفيَّ إلى المرأة، التي شكلت منحا جماليا في التجربة الشعرية الصوفية، وهي في ثنايا قصائد ديوان "أنطق عن الهوى" رمزا للذات الإلهية، حيث يوظف الشاعر عبد الله حمادي لفظ العشق، وهو من أهم مصطلحات الصوفية، فتركيزه على رمز المرأة، يظهر من خلال ذكره لها وهيامه بها وولعه بها، لغير أنَّ هذه المرأة لم تكن غاية في ذاتها عند الشاعر، وإنما كانت رمزا للذات الإلهية. وما يزال الشاعر العاشق مفعم بالهوى والمتاريس، حيث يتسلَّق الإغراء جانب الممكن والمستحيل يقول:

في ليلة السرمديّ
والبحر رهو
والرجاء دليل...

.....
ها هنا تتشهى
رياضة النفس
قطف العطور
من صفائرها الملقاة
في ردهة القلب والطول...
نرق يختفي بالجدائل
المعروشة في الصمت،
يستدرج اللحظة/
اللّعة والغواية/
والندور.
يكبر في توسّله المدى
يستفيق الفتور...⁽²³⁾.

.....
لك الغيوم... ولي من وقعك المطرُ
أنت العطور ولحن النّاي والوترُ
أنت ابتسامة أوقات شغفتُ بها
أنت الضياء... وغصن البان والقطرُ
(...) مهلاً: فعشقتُ مسفوك على ألقى
وطيب عطرك تيّاه ومبتكرُ
نبتت من شطآن فانتنتي
ومن سحابي يفيض الوجدُ والسّمُر⁽²⁴⁾.

كانت المرأة عند عبد الله حمادي، رمزا للتغزل بالذات الإلهية، يصور لنا تعلقه وهيامه بها، فكان بذلك كغيره من الشعراء الصوفيين الذين يعبرون عن حبهم الإلهي، من خلال اتخاذهم المرأة رمزا للتعبير عن الحب والشوق واللهفة والفرح...، فهو يصف، لهفته للقاء محبوبته، والفرح الذي يعرفه جراء لقاءها حيث يواصل الاغتراف من مفردات القاموس الصوفي: (البحر، العشق، الغرق، الوصل، الوجد، الضياء/ النور، الحبيبة...)، فيستخدمها للدلالة على أنّ هذا الغزل ليس غائيا، وإنما هو تغزل بالذات الإلهية، وبهذا كانت المرأة عند الشاعر عبد الله حمادي بوابته إلى عالم التصوف.

إنّ الشاعر عبد الله حمادي قصائد ديوانه "أنطق عن الهوى" يعيش اغترابا روحيا، فكان الشعر تعبيراً عن هذا الغياب، عن عالم الحواس، فكان الصوفي الشاعر، حيث شكّلت النزعة الصوفية عنده جزءاً من تجربته الشعرية، من خلال استلهامه لرموزها وأجوائها، واستعارته للمعجم الصوفي في التعبير عن تجربة الحب العذري، ليعبر بها عن معاناته في تجربة العشق الإلهي، لذلك نجد في قصائد ديوانه حضوراً مكثفاً لرمزيّتا المرأة والخمر (السكر)، غير أنّ للمرأة حضورها الأوفى، حيث يراها مظهراً جمالياً يقف

أمامه متأملاً، ومزاوجاً بين المعنوية والمادية الحسية، لذا يتأرجح تظاهرها في قصائد الديوان بين الروح والجسد، يقول:

كنتُ في مخدعها
قبل غروب الأمس...
أبحث عن جسد امرأة
مرهقة بالبوح،
تنام على فراش الريح
تلقي بصدر مشربٍ على قارعة
المواعيد المنتظرة...
تحلم... بفارسها القادم
من وُعْثاء الطُّرقات
الموعودة،⁽²⁵⁾.

يوظف الشاعر عبد الله حمادي هنا لغة الجسد، وهي لغة موجودة في القاموس الشعري للشعراء القدامى وعند الصوفيين، الذين اعتمدوا على رموز حسية، لكي يعبروا عن الحب الإلهي، وقد استفاد الشعراء المحدثون والمعاصرون من "الطاقات التعبيرية التي تقدمها لغة الجسد، فقدموا لنا صوراً مادية للمرأة، تطمح بالشهوة والنزعة الشبقية، التي لا ترى في المرأة إلا جسداً لتحقيق المتعة الحسية، ولكنهم ألبسوا هذه الصور نزعة صوفية"⁽²⁶⁾.

إنّ الحب والهوى إذاً نقطة انفلات الشاعر من قيود الأزمنة، غير أننا نلاحظ انحرافاً دلاليّاً للمعنى هنا تنبع من دلالات الجسد داخل النص الشعري، فالشاعر عاد للبحث عن الطرف الآخر مرة ثانية، ولكنه في هذه المرة يبحث عن جسد امرأة، جسد متجاوب مع الرغبات حيث يحدث الإغراء، ومن دلالات ذلك الجسد أنّه جسد مرهق بالبوح، يحلم بفارسه، يلقي بصدر مشربٍ على قارعة المواعيد المنتظرة، إنها لحظة البوح والاعتراف، والبحث عن الطرف الآخر، والخضوع له، حيث يحدث الاتصال، ولكن سرعان ما يتحول هذا الجسد عن دلالاته المعهودة الإغراء والفتنة والأنوثة، إلى سم قاتل وتتحول النشوة والفرح إلى ألم ومعاناة، غير أنّه يبقى العالم المسكون بنار الجنة الموعودة، يقول:

تنثني بين ذراعيّ
وتعود ثانية تنفث سحر الزمن

الموجع...
أنهار أمام عروش
صفائرها،
أستعطفها بالكاف
وما تخفي التّون
أن تنثني رمادا
على خارطة الجسد
المسكون بنار الجنة الموعودة...؟⁽²⁷⁾.

تلتقي الأضداد في هذا المقطع الشعري، فيبتعد الجسد عن حدود معانيه ودلالاته المعهودة، فاتحاً أفاقاً رحبة للتأويل والقراءة، وفي كل ذلك تلعب اللغة دوراً أساسياً كوسيلة للتعبير، ولكنها في النص الشعري المعاصر خرجت من عالم المعلوم المحسوس إلى عالم المجهول الغامض، أي التجريد، لكنّه الشاعر يظل يبحث دائماً عن الحب عن الشيء المحسوس ويتساءل عنه، لأنّه لا قيمة للحياة دون مشاركة المحبوب/ الحبيبة، كما أنّ الكل بدون الحب هو اللاجدوى، يقول.

هو الحبُّ ما شاء لنا الهوى
وما دون ذاك فالقلوب تجيب...
فلحبِّ ما دارتْ على الأرضِ نجمة/
وللحبِّ ما هبَّت من الرِّيح طيب/ (28).

.....

الكل بدون الحبِّ يا حبيبتى هو اللّاجدوى..
اللاوصول إلى براري تلك الأماسي الموعودة(29).

فالشاعر لا يستطيع تصوّر عالم دون حبّ، دون هذه الشعلة الفاتنة، التي تحضن الوجود وتضمن له الأمان من شرّ الانهيار والتلاشي، في عالم الملكوت المسكون بالعدم واللاجدوى، فهو الضياء والعشق، لذا كانت المرأة عنده، كما الصوفي سبيل للوصول إلى الحقيقة وبلوغ الحب الإلهي، من خلال الحب الإنساني (حب المرأة)، يقول:

فالحب لولا الحب ما بقينا
ولا دارت سنة الكون واهتدينا
فبالحب تزداد من الشمس حرقه
وبالحب يزدان من الليل إغفاء
هو الحب شلال من العطر دافق
على القلب مجراه... وفي القلب
مرساه (30).

لقد شكلت المرأة عند الشاعر عبد الله حمادي معادلاً موضوعياً للتعبير عن الحب الإلهي، فكانت المرأة الرمز معراجاً للسمو والارتقاء بهذا الحب. ومن هذا الحب يذهب عبد الله حمادي في وصف جمال وحسن امرأته وأنوثتها وفتنتها بكلمات سرمدية يقول: "هو ذا عطرها كامن في المعاني يتهجّى حروف اللّين"، "وفمها نيزك، وفتنتها متاهة"، "وفمها غيمة تفاح... وخانتها ملامه"، "وقامت الملقاة على صدري تهبُّ الرحمة وتمنحني السكينة"، "وشعرها اللّيلكي يمنحني المدى... يمنحني الصّبر على ويلات الذُّنوب... شعرها الزنبقي: يُعلّمني النّفَر على وسادات الصُّدور... شعرها النيزكي: أحلى ثفّاحة، شعرها المخملي: حفنة أمواج، شعرها القسطلّي: بركة أزهار، وجواهر عطر ووقع نبر الشُّجون... شعرها الشاعري سجّاد صلاة"(31).

من خلال هذه الأوصاف تصوير المرأة رمزا للذات العلوية، التي يذوب الشاعر فيها ويهاجر إليها، بكل مشاعره وأحاسيسه، فالمرأة في التصور الصوفي، تجسيد فزيائي تتنوع من خلاله صور الظهور الإلهي.

تحول الشعر مع لغته الجديدة الحداثيّة من لغة الإغراء، إلى لغة الابتكار، إلى فن جعل اللغة تقول ما لم تتعلّم أن تقوله، أين يجد القارئ نفسه في عالم جديد، عالم الكلمة الرمز المليئة بالدلالات والتأويلات اللامحدودة، ذلك العالم الذي تصبح فيه القراءة، قائمة على متعة فك الرموز، وفرصة إلى إنتاج المعاني وتوليد الدلالات، وهو ما يمنح النص الأدبي الحيوية والجدة، من خلال عملية القراءة، التي هي تفاعل بين النصّ والقارئ.

ويستمر توظيف الرمز الصوفي عند الشاعر عبد الله حمادي، وتستمر اللغة تلعب دور الموجه التأويلي والمثير التأويلي، ولكن هذه المرة مع رمز الخمر، الذي وظفه الشاعر بمفرده السكر، وبأسلوب مغاير، فالخمر من أهم الرموز التي يوظفها الصوفي، توظيفا معنويا أي الروحية وليست المادية، وذلك بغرض الإشارة إلى المعرفة والشوق، وهي رمز للمحبة الإلهية، يقول:

كم تقصى دروب المثاني
حاملا وزر الغوايات
وعطر سُكّر الجفون...

.....
يساور النفس
همّ لا ضفاف له...
ويرتجي القلب
ميقات
لمسراه.

.....
وألهب السُكّر
دنياه وأخراه،
وأينع الغيب في أوتار
غيبته
وهامّ بالوهم
مجرّاه ومرساه⁽³²⁾.

شكل السكر عند الشاعر عبد الله حمادي رمزا لمعاناته في بحار الحب الإلهي، وبلوغ حالة النشوة والانتشاء، لذلك فالخمرة هنا تعني "تلك النشوة العارمة التي تقيض بها نفس الصوفي، وقد امتلأت بحب الله، حتى غدت قريبة منه كل القرب... وهو حال من الدهش الفجائي يعتري العبد، فيذهله عن كل حس غير حضور الحبيب، ويغمر نفسه بنشاط دفاق يوقد فيها الوله والهيمن"⁽³³⁾.

إنّ السكر الذي يعبر عنه الشاعر، هو سكر عقلي من نوع خاص، إنّه السكر الروحي، وإلى جانب رمز الخمرة/السكر، وظف الشاعر رمزا صوفيا آخر هو "القلب"، وهو القلب الروحي بوابة العشق، أو الحب الإلهي، كما أنّه مكن الملكات المعرفية والعاطفية عند الإنسان، و "من معاني القلب عند الصوفية أن تجتمع في ثلاثة أمور (الإيمان والعلم والعقل)"⁽³⁴⁾، فالقلب هو مكن الروح، ومكان ذكر الله تعالى.

ومن الرموز الصوفية الأخرى التي تجلت في قصائد ديوان "أنطق عن الهوى" رمز السفر/الرحلة/العروج، كرمز للرحلة الروحية، للوصول إلى الذات الإلهية، "فالسفر بديل مطروح وتعويض مطلوب، السفر إنعتاق من العبودية وانطلاقة في المجهول، خروج من القيود ودخول في فضاء الحرية، وهذا السفر يحقق لذة الاكتشاف والتحرر من القيود الخائفة"⁽³⁵⁾. فالسفر كما هو معلوم الانتقال

والتحرك من مكان لآخر، أو الارتحال، ولكنه عند الصوفي رمزا للمزيد من التطهر والقرب، والتحول الروحي، يقول:

أحببت يا حبيبة مدارج
القربان
ونكهة العروج لعالم الكتمان
لأهب الجنون وخضرة العصيان،
أو أستعيد رسائل الغفران
ومحنة التكوين والهوان....⁽³⁶⁾

ويواصل قائلاً:

أحببت يا حبيبة أن أقبض الأسرار،
أن أدفع مراكبي لمانح الأبرار
وكاتم المثاني والغمام...
أن أحكم البدايات،
أن أشطب النهاية
من غاية شتوية
تعيد في الطفولة قامتها⁽³⁷⁾.

إنّ الشاعر يحاول الهروب من واقع الإحساس بالغربة والوحدة، لذا يريد الرحيل إلى حبيبته طلباً للوصل، فيتشكل بذلك مزيج شعري بين رمز الرحلة/السفر ورمز المرأة، أو المحبوبة، حيث تنبعث دلالات رمزية نابغة من تجربة الحب عند الصوفية، "ومن ثم فإن السفر، لدى الشاعر، ليس سفراً حقيقياً، وإنما هو سفر نفسي، بمعنى العروج الصوفي، وهذا تعويض للخواء الذي يعانيه الشاعر... كما- إنّ معظم الألفاظ والتراكيب في النص الشعري، انزياحية، تدفع بالمتلقي إلى محاولة استبطانها والكشف عن مدلولها"⁽³⁸⁾، يقول:

أوكلت للعين أن تفضي بما رمقت
وأن تعيد الذي ما دونه خبر
وأن تسافر حيث الوجد مركبة
فيها الرجاء يحول دونه الخطر⁽³⁹⁾.

فالنص الشعري عند عبد الله حمادي وضعنا منذ البدء في رحلة روحية، تنطلق من حب المخلوق إلى حب الخالق، فالمرأة واردة بشكل روحي رمزي، يحيلنا على الحب الإلهي، فتنبثق لنا الإشارة إلى الإلهي، باستخدام الرمز الأنثوي، الذي لجأ إليه الشاعر بهدف التعبير عن المطلق بواسطة الصورة الحسية، وذلك من أجل التوصل تعبيرياً إلى تشكيل علاقة مع العلو غير المتعين، وهنا يظهر الرمز لا يطابق المرموز إليه، وأن الاسم لا يماثل المسمى، وإنما يكتفي بالإشارة إليه.

وهكذا فالشاعر عبد الله حمادي، في قصائد ديوانه "أنطق عن الهوى"، يستنطق أعماق الذات، المشحونة بعذابات الواقع الأليم، الذي يريد الهروب منه، بالتجرد من العالم السفلي والتوحد بالعالم الأعلى. ويظهر ذلك من خلال تقمص المعجم الصوفي والصوفية في جميع تجلياتها وتمثلاتها، فلقد استطاع الشاعر أن يحرر التجربة العاطفية ويرتفع بها من معناها المعهود المألوف أي المادي، إلى مستوى الصوفية العميقة بأجوائها الروحانية الشفافة، فالحب بدأ من الإطار المادي وانتهى إلى الجوهر الروحي، أي الحب الإلهي.

خاتمة:

- لعبت اللغة الصوفية، دور المعبر والناقل، تنقل ما ينتاب الشاعر في لحظات استبطانه لأغوار ذاته، كما تنقل تجارب الأسفار الروحية للذات المبدعة، وهي تتأمل خفاء الكون والوجود وحائقهما الغيبية.
- شكلت اللغة الصوفية في ثنايا الديوان لغة حب ومحبة، برمزياتها ومجازيتها ذات الدلالات الكثيفة المفتوحة على أكثر من تأويل.
- شكلت المرأة عند الشاعر عبد الله حمادي معادلا موضوعيا للتعبير عن الحب الإلهي، فكانت رمزا للتغزل بالذات الإلهية، ورمزا للتعبير عن الحب والشوق واللهفة والفرح، ومفتاح بوابته إلى عالم التصوف.
- استطاع الشاعر عبد الله حمادي، أن يستنطق أعماق الذات، المشحونة بعذابات الواقع الأليم، الذي يريد الهروب منه.
- حققت قصائد الديوان خاصية الجدة والابتكار وعبرت عن تجربة صوفية فريدة، من خلال الكشف عن الحالة النفسية للشاعر من جهة، وكشف الواقع وتعبيرته من جهة ثانية، وبهذا تكون القصيدة المعاصرة قد حققت صفة الحداثة. بخروجها من المحسوس المعلوم إلى عالم المجهول الغامض، أي التجريد. ومن المادية إلى الروحية في أسمى معانيها.

قائمة المصادر والمراجع:

- أحمد العياضي، تجليات اللغة الصوفية في الشعر الجزائري المعاصر - دراسة أسلوبية -، مجلة النص، العدد 11، 2012.
- إيمان كمال مصطفى المهداوي، القلب ودلالاته عند الصوفية، مجلة مداد الآداب، الجامعة العراقية، العراق، العدد 11، 2015.
- بسام قطوس، استراتيجيات القراءة، التأصيل والإجراء النقدي، مؤسسة حمادة ودار الكندي، أربد، 1988.
- جبران مسعود، الرائد معجم الفبائية في اللغة والأعلام، دار العلم للملايين، ط3، 2005.
- جميل حمداوي، السيميوطيقا والعنونة، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطن للثقافة والفنون والآداب، الكويت، المجلد 28، العدد 1، 1997.
- حسين خمري، الظاهرة الشعرية العربية، الحضور والغياب، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001.
- عبد الحميد هيمة، الخطاب الصوفي وآليات التأويل، قراءة في الشعر المغربي المعاصر، موقم للنشر، الجزائر، 2008.
- عدنان الحسين العوادي، الشعر الصوفي حتى أفول مدرسة بغداد وظهور الغزالي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986.
- عبد الله حمادي، ديوان "أنطق عن الهوى"، الألمعية للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، ط1، 2011.
- صباح رغدي وزبيدة رقي، نزعة التصوف في ديوان "الكتابة بالنار" لعثمان لوصيف، مذكرة ماستر، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر، 2020.
- عبد المنعم الحفني، معجم مصطلحات الصوفية، دار المسيرة، بيروت، لبنان، ط2، 1978.
- ابن منظور، لسان العرب، مج15، دار صادر، بيروت، لبنان، ط4، 2004.
- الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج3، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1980.
- محمد أبو ريان، تأليف الحركة الصوفية في الإسلام، دار المعرفة الجامعية، مصر، (دت).
- محمد عبد المنعم خفاجي، تأليف الأدب في التراث الصوفي، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 1938.
- محمد مفلح، جماليات الرواية الصوفية في رواية سفر السالكين، مجلة قراءات، المجلد 12، العدد 1، 2020.
- وفيق خنسة وفيق، دراسات في الشعر العربي الحديث، دار الحقائق، ط1، 1980.

- (1) حسين خمري، الظاهرة الشعرية العربية، الحضور والغياب، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001، ص13.
- (2) المرجع نفسه، ص 16.
- (3) بسام قطوس، استراتيجيات القراءة، التأصيل والإجراء النقدي، مؤسسة حمادة ودار الكندي، أربد، 1988، ص58.
- (4) محمد مفلح، جماليات الرواية الصوفية في رواية سفر السالكين، مجلة قراءات، المجلد 12، العدد 1، 2020، ص 225.
- (5) محمد أبو ريان، تأليف الحركة الصوفية في الإسلام، دار المعرفة الجامعية، مصر، (د.ت)، ص07.
- (6) محمد عبد المنعم خفاجي، تأليف الأدب في التراث الصوفي، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 1938، ص33.
- (7) جميل حدادوي، السيميوطيقا والعنونة، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطن للثقافة والفنون والأدب، الكويت، المجلد 28، العدد 1، 1997، ص106.
- (8) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج3، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1980، ص277.
- (9) ابن منظور، لسان العرب، مج15، دار صادر، بيروت، لبنان، ط4، 2004، ص115.
- (10) عبد الله حمادي، ديوان "أنطق عن الهوى"، الألفية للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، ط1، 2011، ص75.
- (11) المرجع نفسه، ص81-85.
- (12) المرجع نفسه، ص 68.
- (13) المرجع نفسه، ص63.
- (14) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ط3، ص161.
- (15) جبران مسعود، الرائد معجم الفبائية في اللغة والأعلام، دار العلم للملايين، ط3، 2005، ص610.
- (16) عبد المنعم الحفني، معجم مصطلحات الصوفية، دار المسيرة، بيروت، لبنان، ط2، 1978، ص184.
- (17) صباح رغدي وزبيدة رقي، نزعة التصوف في ديوان "الكتابة بالنار" لعثمان لوصيف، مذكرة ماستر، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر، 2020، ص65.
- (18) أحمد العياضي، تجليات اللغة الصوفية في الشعر الجزائري المعاصر دراسة أسلوبية -، مجلة النص، العدد 11، 2012، ص278.
- (19) عبد الله حمادي، ديوان أنطق عن الهوى، مرجع سابق، ص 30.
- (20) المرجع نفسه، ص 19-20.
- (21) المرجع نفسه، ص 19-20.
- (22) عبد الله حمادي، ديوان "أنطق عن الهوى"، م س، ص 68.
- (23) المرجع نفسه، ص14-18.
- (24) المرجع نفسه، ص63.
- (25) المرجع نفسه، ص75.
- (26) عبد الحميد هيمة، الخطاب الصوفي وآليات التأويل، قراءة في الشعر المغربي المعاصر، موفم للنشر، الجزائر، 2008، ص229.
- (27) عبد الله حمادي، ديوان "أنطق عن الهوى"، م س، ص79.
- (28) المرجع نفسه، ص 81.
- (29) المرجع نفسه، ص84.
- (30) المرجع نفسه، ص 85.
- (31) المرجع نفسه، ص93-97.
- (32) المرجع نفسه، ص16-59.
- (33) عدنان الحسين العوادي، الشعر الصوفي حتى أفول مدرسة بغداد وظهور الغزالي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986، ص119-120.
- (34) إيمان كمال مصطفى المهداوي، القلب ودلالته عند الصوفية، مجلة مداد الآداب، الجامعة العراقية، العراق، العدد 11، 2015، ص257.
- (35) وفيق خنسة، وفيق، دراسات في الشعر العربي الحديث، دار الحقائق، ط 1، 1980، ص 77.
- (36) عبد الله حمادي، ديوان "أنطق عن الهوى"، مرجع سابق، ص25.
- (37) المرجع نفسه، ص93-97.
- (38) أحمد العياضي، تجليات اللغة الصوفية في الشعر الجزائري المعاصر - دراسة أسلوبية -، مرجع سابق، ص 279-280.
- (39) عبد الله حمادي، ديوان "أنطق عن الهوى"، مرجع سابق، ص64.